"عندما"

تأليف:
مرتضى ابو حرب

"عند ما"

تأليف

مرتضى ابو حرب

إهـــداء

الى اغلا واجمل مخلوق في هذ الكون الى تلك الإنسانة التي تمثلت رمز للحنان و العطف ألى تلك الإنسانة التي افنت جميل ايامها لتسعدني والدتي العزيزة .

و ألى ذلك الشخص الذي بمثابة شجرة احتمي بها من عصف الأيام وغدرها ذلك الشخص الذي جعل من نفسه درعا ليحميني وليوصلني ألى ما انا عليه اليوم والدي دامك الله لي انت و والدتي ذخرا و عزا . وألى كل شخص ساندني و وثق بما اصبو اليه و وثق بحلمي . واخيرا وليس اخرا ألى تلك الجميلة التي كانت هي سبب شاعريتي و كتاباتي و الهامي . ألى تلك الانسة التي لولاها هي وجراحها التي نقشت داخل فؤادي لما وصلت الى ما وصلت اليه اليوم بشعري . انسة فاقت الخيال لم ولن اشاهد بشريا بمثل جمالها و رقتها و عطفها . ولكن الحظ لم يحالفني لأوقعها في شباك عشقي وكأن الدهر بداء في معاداتي وعنها كان يسعا ليبعدني.

مقدمة:

((هذه الحياة كالقطار والناس عبارة عن محطات

فلا تهدر بها من وقتك الكثير حتى لا تسبب بعضها لك الألم عند الرحيل))

مقولة قلتها في سالف الازمان ، وستنطبق على الجميع كنت انا ضان .

ألى ان أتى ذلك اليوم وصادفتني، فلم استطع ان اجعلها ترتحل من مخيلتي.

وسقطت امامها اولى قواعدي ، التي وضعتها لأكمل عليها مسيرة حياتي.

فكلما زاد رفضها لي و لعشقي، ازدادت مكانتها و محبتها داخل قلبي.

في تلك اللحظات ادركت، ان اصحاب القلوب العاشقة امام الذين احبتهم قد وهنت و ضعفت. ومهما بلغت الحرب بين كبريائها و الاشتياق و اشتدت ، فأنها تعلم علم اليقين ان الحرب قد خسرت.

عندما يعتري روحي الاشتياق

في احدى الأمسيات وانا جالس على ضفاف نهر الفرات

والشمس تكاد ان تسرق من خلف الأفق .

السماء تبرجت وتزينت لاستقبال النجوم التي عشقت .

عشقت ذلك القمر و اذا بها ترتدي وشاحها الأحمر .

و الطيور قد اقبلت الى اعشاشها وكأن شيئا من البهجة والاشتياق قد غمرها ،

ولكن ما حيرني اني قد رأيت عصفور حط على اطراف اغصان الشجر

وتعتريه نضرات اليائس و الحرمان تارة ينضر الى الثمار التي حوله

و تارة ينضر الى ازواج الطيور التي تحط وتطير بجانبه

ولكن ما ازادني عجبا انه لم ينجذب الى كل تلك الأمور الجميلة التي بقربه

ولا يشارك الطيور الأخرى في تحليقها و بهجته

بل مكتفي بالسكون و المراقبة

وكانت نظراته تترجم لي حزنا .

حزنا قد سرق ما سرق و شوقا اخذ ما اخذ

وكأني بداءة افهم نظراته و ما يقوله لي

واذا بي اني بدأت الحوار معه

حوار لا يسمع فيه صوت ولا تحرك سا كنا

بل كان من اجمل الحوارات الا وهو حوار النضرات .

واذا بي اقول له ماذا بك يا صاحبي ماذا حل بروحك حتى وصلت الى هذا القدر

من اليأس و عدم اللامبالاة ؟

ثم قلت له :

ـ هل كسر احدا جناحيك ؟

هل تسبب لك احد الصيادين بجرح ؟

هل تعاني من الم ما يجعلك غير قادر على الحراك؟

واذا به يقول :

ـ نعم قد كسرت ولكن جناحاي سليمان .

ـ نعم لقد اثقل كاهلي الصياد بكثرة جراحه ولكن ليس في جسدي.

ـ نعم اعاني الألم ولكن المي ليس له دواء.

قلت : وكيف كسرت وجناحيك سليمان ؟

وكيف تسبب الصياد بجرحك وجسدك لم يخدش ؟

وكيف ليس لألمك علاج ؟

قال : ليست كل الكسور ضاهرة ،

ولا كل الجراح قد ترى ولا لكل ألم دواء.

فالثقة كقطعة اثرية قديمة صنعت من الزجاج ، فبكسرها لن تعود كما كانت .

والجراح التي في داخلي ليس كجراح الجسد فبعضها يمحو اثره الزمن وينسى ،

ولكن الروح اذا جرحت ستحاول التعافي لكن من المستحيل ان يمحو الدهر اثرها ،

وليس كل ألم يداوى او تجد له علاج .

فبعض الألآم عجز الدهر و القدر كل العز على تسكينها ولو لبرهة من الوقت .

فيا صاحبي انا ذلك العصفور الذي افنا عمره ووقته في التخطيط على اغصان تلك الشجرة.

خطط ليبني على اغصانها منزلا

ويملئه صغارا ويسكنه حبيبتا

وعلى تفتح الأزهار في الصباح

يرسم على اوراقها ابتسامة مرحا

ويملأ الأرجاء عزفا وطربا

ثم قال :

ولكن يا صاحبي وسكت .

،وانا ارى في عينيه قد ولجت دمعتا

تخط وتروي كل ما مر به وكل ما جرا له

تروي قصة كادت تكون اعجب من العجب

عن عصفور اثقل كاهله التعب

ثم عاد وتكلم قائلا:

ولكن يا صاحبي

قد كان فأس الدهر عليه وعلى احلامي قاسيا

فحول آمالي و شجرتي الى حطبا

واذا بأخي ينادبني قائل:

هيا الى المنزل قد حل المساء .

ـ فأجبته نعم انا آت .

ثم رجعت لأكمل الحوار مع صديقي العصفور

فوجدته قد اختفى

وانا لا اعلم الى اي مكان قد ارتحل او أي طريق قد سلك .

نهضت لأعود الى المنزل

وانا في طريقي قد شغلت فكري قصة ذلك العصفور المسكين

الذي نال ما نال منه التعب

كانت عادتي وبعد منتصف الليل

وعندما تخلد جميع المخلوقات الى النوم

اجلس على سطح منزلنا و نتسامر انا وذلك القمر .

وفي هذه اللحظة

واذا بذلك العصفور الذي في المساء حاورني

عاد بعد منتصف الليل ليكلمني

قلت:

وهل للعصافير ان تبقا في الليل مستيقظة ؟

فرد قائل:

ومن قال لك اني انا عصفور واحاورك ؟

انما انا تلك الروح التي في داخلك

التي عانت ما عانت بسبب الزمان وقدرك

حتى اصبحت كورق الرسائل التي بعثت

الى ذلك الشخص الذي لا يهمه امرها

فلم تفتح ويقرا ما كتب في داخلها

ولم ترا الدموع التي اثناء كتابتها , قد ملئت اجزائها

وكان في درج مظلم مليء بالتراب مصيرها ،

هكذا جعلني الزمان و القدر

جعلني اتعلق بشخص لا يهمه الأمر

فعند ما يعتريني الاشتياق هكذا اتحول.

عندما انطفئت شمعتي

في الثانية عشر بعد منتصف الليل

قد اشتاقت تلك الروح البالية التي في داخلي

الى تلك السيدة التي

جلع غرورها من حياتي مسكنا للجراح و الالم .

حيث كنت جالس وحيدا في غرفتي

وكان قد نقطع التيار الكهربائي

فذهبت الى الدرج الصغير الذي في مكتبي

و على شمعة قد كان يحتوي

فأشعلت تلك الشمعة الجميلة

التي كان يتخلل البرد شعلتها المنيرة

و كان الاشتياق قد اخذ ما اخذ من راحتي

وسرق الكثير من سكناي و ايام فرحي

وبدئت تتزاحم و تصطف الذكريات في مخيلتي

وكنت اشاهدها وحدة تلوه الأخرى

كأنها فلم سينمائي

كان هذا ما يحدث عندما اجلس كل ليلة وحدي

ولكن كان هنالك امر مريب في تلك الليلة

كان يرتابني الشك حول تلك الشمعة

التي كان يتخللها البرود ويملئ الشعلة

وكأن خيطها الذي في داخلها بدء ينطق الكلمات

قائل:

اما يكفيك حزنا و الم ؟

و هل ستبقى هكذا حت الممات ؟

هل هذا هو حال الذي يعشق من طرف واحد ؟

أ هكذا تتخلله الحسرات ؟

هل يقضي ليله يشكي الهموم الى تلك النجمات؟

اما يكفيك حزنا وبؤسا كل تلك السنوات؟

فيا صديقي لا تصبح كحالي

اوقدوني ونسو ان يطفؤوني

اوقدوني في ليلة كانت حالكة

شديدة البرد كانت ممطرة

لم يبالوا لأمري

ولا للنيران التي اكلت ما اكلت من اجزائي

فكان يأخذهم الحنين والارتياح في شعلتي

وانا تأخذني النار من كل جانب و تأخذني حرقتي

فيا صاحبي اياك وان تصبح كحالي

يتركوني و يرحلون جميعا عند أنطفائي

وبعدة برهة من الوقت

شمعتي للاحتضار استعدت

وكانت تلفظ اخر انفاسها مودعة

بصوت خافت لا يسمع

قائلة:

يا صاحبي اياك والانتظار

فمن كان حقا يحبك لما عنك قد ارتحل

ومن يحبك حقا لن يعتريه منك الملل

فعندها شعرت بإحساس غريب لأول مرة اشعر به

حيث كان يدور صراع في داخلي

صراع ما بين كبريائي وروحي

وفي كلا الحالتين ستعلن خسارتي

فان انتصر الكبرياء ستموت الروح التي في داخلي

ولن ابالي الى تلك الأزهار والعصافير التي

تزقزق كل صباح على شرفة نافذتي

سأغدو فانيا وانا احيا في جسدي

وان انتصرت الروح سيهدم الكبرياء الذي

يعتري شخصيتي

وفي كل ليلة سوف تسيل مدامعي

واتذكر صورتها التي في مخيلتي

ومثل تلك الشمعة نيران الاشتياق ستأكلني

فأتحول إلى رماد وتأتي رياح الفراق لتحملني

وبين مسافات الدهر والطرقات ستنثرني

فاغدو باحثا عن اثر لتلك التي اسرت عقلي

وسرقت تلك الضحكات الجميلة من بين شفاهي

والى جزيرة الحزن والألم سينفى قلبي

كل هذا دار في مخيلتي

عندما انطفت شمعتي.

عندما سقط القلم

كنت جالس في قاعتي الدراسية

وقد كان اول يوم في حياتي الجامعية

وكانت جميع الوجوه التي من حولي غريبة

فمن الإرباك الذي في داخلي

لم ادقق بمن كان من حولي

بعدها دخل الأستاذ ملقي التحية

ثم نادا بجميع اسماء الطلبة التي في القاعة

وعندما وصل الأستاذ الى ذلك الاسم

احسست بشيء لا اعلم ما هو

وقد اختفى ما بداخلي من ألم

وعندما استدرت لأنضر الى صاحب ذلك الاسم

احسست بذلك الشعور الغريب

وقد سقط من بين اصابعي ذلك القلم

فلم اشاهد غير احدى حور عين السماء جالسة

في عينيها دفأ من برد الشتاء يقيني وكانت مبتسمة

كأنها المشتري وتحيط بها اقمار نورها الإحدى عشر

فمن كانت تبتسم له كانت تكسر له جميع قيود القدر

فتحررت من جميع القيود التي كانت تأسرني

وحلقت مثل طير وانا ضانا بانها

من بين كل الشجر هي التي ستحتضنني

كأن البدر الذي في السماء اخذ نوره من وجنتيها

وكأن الشمس تزودت بالدفيء والحرارة من شفتيها

فكانت كرماح صياد تقتل كل شخص نضره اليها

تعويذة سومرية كأنها نقشت على هدبيها

تفتن كل من مرت بقربه وكأن السحر اخذ من عينيها

فقد نافست ازهار الحدائق بأ كملها

في نعومة وجمال أناملها

وكالنخيل الشامخات قد كان طولها

فتغنت عصافير البساتين برشاقة وميول خصرها

و احمرت وجنتي ذلك الربيع عندما تنفس عطرها

احمر خجلا لان رائحة نسيمه الذي يداعب الزهور

لن يضاهي ابدا العبق الذي تخلل عطرها

وقد ابحر شراع روحي في بحر عشقها

وكنت راجيا ان يصل قاربي الى شواطئ جزيرتها

فقد كانت نظراتها تشفي ما بداخلي من الم

كنت خائف ان ابعد عيناي عنها ويعتريني الندم

هذا ما رايته وجال في خاطري عندما سقط القلم

عندما تستذكر الروح احبتها

بزغت شمس الصباح ولكن كان في بزوغها

شيء من ظلمة الليل الحالكة

الذي لا يقطع ويبدد سكونها

اي شيء في الكون وكانت اشعتها

تبعث البرد وكأن الدفئ الذي يتخللها

أختفا وندثر في غبار الأيام التي مضت

وعصافير السماء ذات الطلة البهية

هجرت اغصان الأشجار وأيامها

وباتت تبني اعشاشها

على الأشواك اعشاش صنعتها

صنعتها ليس للمغازلة في ما بينها

او لتربيت فراخها

بل صنعتها كمنازل للحزن ولدمعها

واستذكار ايام احبتها التي تركتها

كأوراق خريف تتساقط على الطرقات متبعثرة جراحها

وتأتي رياح الاشتياق لتحملها

وتوقض في داخلها لحظات كانت لذكرها

باكية وألى منفى الأحزان تذهب بها

فهذا ما يجول في خاطري ويحل بها

عندما تستذكر الروح احبتها

عندما يعصف الحنين بداخلي

فلتشرق على روحي ايه الغائب المرتحل

كما تشرق شمس الصباح على الأكوان

وتلون السماء والأزهار بأبها الألوان

فالروح بدأت تذبل وتتساقط كأوراق الشجر

اذ هب عليها نسيم الخريف القاسي المقتدر

وبدأت نيران العشق الملتهبة بالخمود

وبداء رماد الهجر والاشتياق بالتطاير

وتصاعد في سماء احلامها دخان الياس

ليتكثف في اعاليها ويتحول الى غيوم

غيوم محملة بدموع الأعين الوالهة

ورعد تتخلل صوته الأحزان القاتلة

وبرق تتناثر في وميضه أحلاما مترفة

كأنها كلمات رسائل عشق اتعبها القدر

فتناثرت وفقدت بين مسافات الدهر

فاشرق عليها وجمع شملها الذي انتثر

ايه الغائب الذي عني قد ارتحل

فقد زاد الأنين وسالت مدامعي

ونيران الاشتياق كالأغصان تحرقني

عندما يعصف الحنين بداخلي

عندما يخيم الظلام وأكون بمفردي

يخيم الظلام على ارجاء المكان

ويبداء العالم و ما فيه بالسكون

وعندما يخلد الجميع الى النوم

تستيقظ تلك الأشياء التي في داخلي

وكأنها تعيد الحياة لشيء في جوف صدري

شيء لا اعلم ما هو او ما يكون

شيء تارة قاسيا وتارة اخرى يكون حنون

شيء من وحي الخيال كأنه ألة للزمن

يعيد في داخلي مواقف للسعادة و اخرى للحزن

وفي هذه الاثناء

يتطاير ذلك الغبار الذي يعم الأرجاء

ويبداء العرض السينمائي اليومي

ولكن عرض يعرض داخل مخيلتي

عرض يعيد لحياتي اشخاص قد أرتحلو

والى ذلك الشخص الذي تركوه لم يلتفتوا

فكالحمام الذي ماتت حبيبته تركوه

والى غصنا منكسرا اضرمت فيه النار حولوه

وتحولت كلتا وجنتيه الى ذلك الورق

فأصبح دمعه حبرا في كتابة معاناته قد انطلق

انطلق ليخط ويروي تلك القصة العجيبة

قصة تروي ما يجول في داخلي

تروي الصراع الذي بين العقل وقلبي

فعندما يكون العشق من طرف واحد

ستكون هذه نتيجته

تفقد الحياة حياته وتستشهد ايامه

وتلك الابتسامة الجميلة التي على محياه

تكون اول شهداء تلك الحرب وفي مقابر الحزن تدفنه

فتثقل بتلك الجراح امنياته

وتتشح باللون الاسود احلامه

فتتحول الى رماد وتملاء الكون اماله

بعد ان احرقتها الحرب التي دارت بمخيلتي

كل ما كان جميل ويسعدني في داخلي

فكل يوم هذا ما يحدث لي

عندما يخيم الظلام وا كون بمفردي

المحتويات